غرابة أن يغضب العقاد غضبا خاليا من (الصنعة والافتراء) لأن العقاد مستقيم فى تفكيره كله لا ينحرف ، ولايقيس بمقاييس متضاربة .

المهم هو أن خصام العقاد ممع شعر شوقى يجب أن يعتبر واحدا من أهم ملامح الفهم الأدبى الحديث ، ويجب أن ينظر اليه على أنه ثورة على الفهم المتوارث للغة ، وبعبارة أخرى كان شعر شوقى يمجد نظام الأفكار والأحاسيس التى سميناها باسم فتنة اللغة ، هذا النظام الذى يريد العقاد أن يحد من سطوته .

(٧)

حارب العقاد بعض صور العذوبة وبعض النغمات المحبوبة ، وحارب ظرف البلاغة المشهور وسلطة الأساليب التى تعلو على حرية التفكير ، حارب فى الحقيقة الإعلاء الذى ورثناه من البلاغة لطائفة من رسوم اللغة المتغلغلة الغامضة . هذه الرسوم ليست هى البديع الفاقع . هى أخفى من هذا وأدق وألطف ، كان العقاد يتجه بخطابه الى جمهور واسع ، وكان يلون هجومه بلون لايخلو من انفعال وسخط ، ولو كان العقاد يعلم طائفة من الشباب فى معهد أو جامعة لأتيح له أن يجلى انفعالاته بطريقة أخرى ، ولكن العقاد مع الأسف حرم هذه الفرصة ، وحرم النهوض الأدبى أو تغيير الفهم من خير غير قليل . ولنمض قليلا مع بعض النماذج . يقول شوقى فى رثاء محمد فريد :

كل حى على المنية غاد .. تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الاولون قرنا فقرنا .. لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم .. غير باقى مآثر وأياد

هذا هو اللفظ العذب ، وهذه نغمة محبوبة ، هذا هو التنويع اللغوى الذى كان يسترعى نظر عبدالقاهر فضلا على من دونه من الباحثين ، التنويع بين جمل اسمية وفعلية ، التنويع بين التعريف والتنكير ، التنويع بين حاضر وباد ، التنويع بين ترى وتسمع ، ومن هذا التنويع أيضا الانتقال من صيغ الإنباء الى صيغة السؤال ، والانتقال شبه المباغت من الموت وتوالى ركاب الأموات الى المآثر والأيادى . هذا هو التنويع الذى شرعت له البلاغة . ولكن كل هذا كان يثير غضب العقاد لأنه يستفز فلسفته التى عاش عليها لا يحيد . يقول العقاد مهتاجا : فى القصيدة مانسمعه من أفواه المكدين